

دلالات توظيف الأساطير في شعر فدوى طوقان شاعرة فلسطين

موسى عربي^١، سجاد عربي^٢، حميدرضا غلامي^٣

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز

٢. طالب دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس

٣. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إدارة التعليم، بابل

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٧/١٦ : تاريخ القبول: ٢٠١٨/١/٧)

الملخص

يعتبر استخدام الرمز والأسطورة من أبرز المظاهر الفنية للأسلوب البياني في التجربة الشعرية الحديثة. إن ما يربط الشاعر المعاصر بالأساطير والتراث الشعبي القديم بشكل عام، هو تلك السمات الفنية التي تتمتع بها هذه الأساطير ومنها القدرة على التشخيص والتمثيل، ومنح الحياة للأشياء الجامدة، واستخدامها للظلال السحرية للكلمات والصور البيانية القادرة على الإحاطة وإضافة إلى ذلك الطاقة الخيالية الجامحة القادرة على ارتداد علم الطبيعة والإنسان. يلقي هذا البحث الضوء على دلالات توظيف الأساطير في شعر فدوى طوقان وبيان دلالاتها الكامنة التي تتجسد في نفس الشاعرة وفق المنهج الوصفي التحليلي. وقد تمثلت أهم نتائج البحث في أن الشاعرة وظفت الأساطير في بنيتها الشعرية بطريقتي الميكانيكية والعضوية. تستخدم شاعرة فلسطين الأساطير لبيان بغضها الكامن على العدو الصهيوني وبيان وجهات نظرها الدينية والثقافية وما يمر في مجتمعا العربي والفلسطيني ومقاومتها، وتحلف المجتمع العربي آنذاك فتتجلى أساطير البعث والخصب أكثر من غيرها في شعر طوقان حيث أن أهم هدف تبحث عنه طوقان من خلال توظيف هذا النوع من الأساطير، هو ضخّ الأمل والحياة في قلوب الفلسطينيين الذين يشعرون بالقلق تجاه القضية الفلسطينية غير أنه في استخدام أسطورة سيزيف تبعد شيئاً عن رسالتها الثورية والإحيائية حيث تجعل اليأس لیتسرب في قلوب الشعب الفلسطيني.

الكلمات الرئيسية

فدوى طوقان، توظيف الأسطورة، الشعر العربي المعاصر، فلسطين.

مقدمة

يبدو أن التقارب الشديد بين الأسطورة والشعر من حيث اللغة والوظيفة ناتج عن الأرضية الواحدة أو المتشابهة التي ينطلق منها كل من الشاعر ومبدع الأساطير فهما «يعيشان في عالم واحد، ولديهما موهبة أساسية واحدة وهي القدرة على التشخيص، لا يستطيعان أن يتأملا شيئاً دون أن يمنحاه حياة داخلية، وشكلاً إنسانياً متميزاً» (كاسيرر، ١٩٦١: ٢٦٦). وكأنهما ينفثان في الأشياء من روحيهما فيهبانها القدرة على الإفصاح عن نفسها.

إن ما يربط الشاعر المعاصر بالأساطير والتراث الشعبي القديم بشكل عام، هو تلك السمات الفنية التي تتمتع بها هذه الأساطير ومنها القدرة على التشخيص والتمثيل، ومنح الحياة للأشياء الجامدة، واستخدامها الظلال السحرية للكلمات والصور البيانية القادرة على الإحاطة وأضف إلى ذلك هذه الطاقة الخيالية الجامحة القادرة على ارتياد علم الطبيعة والإنسان. (أنظر: بلجاج، ٢٠٠٤: ٣٩)

إلى جانب هذا فالأسطورة «ضرب من الشعر» (فرانكفورت وآخرون، ١٩٨٠: ١٩) تبني الحقيقة التي تعلن عنها بطريقتها الخاصة التي هي تفوق مستوى التعبير اللغوي المعتاد على حد تعبير كلود ليفي ستراوس فهي بعبارة أوضح ذات طبيعة لغوية خاصة لا نجدها في تعبير لغوي آخر سوى الشعر، وأعني التعبير المجازي عن الحياة والوجود. فهذه المجازية في الرؤية والتعبير هي القاسم المشترك بين الأسطورة والشعر. (أنظر: بلجاج، ٢٠٠٤: ٣٩)

وغاية الأسطورة والشعر لا تكمن في التعبير عن الأشياء العارضة المنتهية في الزمان والمكان، و«إنما في التعبير عن القيم الخالدة والنماذج الكبرى في حياة البشر، وقد أشار كارل يونغ إلى هذه الفكرة وتحدث عن الأساطير بوصفها أكثر نتاج البشرية البدائية نضجاً وتعبيراً عن هذه النماذج، والشعر العظيم عنده يستمد قوته من حطاة النوع البشري» (بلجاج، ٢٠٠٤: ٣٧).

بناء على ما سبق ذكره، يستطيع المتأمل أن يجد مئات الصور التي تتجسد فيها الأسطورة لدى الشعراء في لغات الأرض تبعاً لعشرات المتغيرات النفسية والعقائدية والحياتية التي يمرّ بها الشاعر أو تمرّ به. وفي الشعر العربي نرى صوراً مختلفة للأسطورة عند «بدر شاكر السياب»، و«أدونيس»، والشعراء الآخرين وكذلك بشأن فدوى طوقان وتبلغ هذه الصور حداً من التنوع عندها كما سنرى.

أسئلة البحث:

تنطلق إشكالية هذه الدراسة في تحديد دور فعّال تلعبه الأسطورة كأداة فنية - تلجأ إليها الشاعرة الفلسطينية لما تضمنه من طاقات معرفية وجمالية - يمكن أن توظّف في شعرها لطرح قضايا معاصرة برؤية قابلة للمرونة والتنوع، مع طرح البدائل الفكرية التي تكون في بعض الأحيان موقفاً سياسياً لطرح تناقضات الواقع الحالي وحسمها. وتحتل الاسطورة جانبا هاما في شعر طوقان نتيجة للظروف التي احاطت بها في مسيرتها الوطنية واتجاهاتها السلوكية والفنية. تتمثل إشكالية البحث الحالي في الأسئلة التالية:

- أ) كيف ظهرت الأساطير في فكر فدوى طوقان الشعري؟
- ب) لماذا سعت فدوى طوقان إلى توظيف الأساطير في شعرها؟
- ج) ماهي وجوه أداء الأسطورة في بنية فدوى طوقان الشعرية وأي من الأساطير حظيت بحضورها الأكثر في شعر فدوى؟

أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى مايلي:

- أ) التعرف إلى كيفية توظيف الأساطير في شعر فدوى طوقان ودلائل حضورها في شعر الشاعرة.
- ب) التعرف إلى أنواع الأساطير الموظفة لدى فدوى طوقان وتبينها على أساس المنهج الوصفي التحليلي.
- ج) فهم الدلالات الرئيسة الكامنة وراء استحضار الأساطير من قبل الشاعرة الفلسطينية والتعرف إلى عمق شعرها.

فرضيات البحث:

- أ) تستحضر الشاعرة الفلسطينية الأساطير في بنيتها الشعرية بكلا الطريقتي الميكانيكية الخارجية والعضوية الداخلية.
- ب) تسير الشاعرة على خطى الشعراء الغربيين في توظيفها للأساطير وتسعى من خلالها توضيح أهدافها الداخلية التي ليس بإمكانها التعبير عنها صراحة.

ج) تستحضر فدوى الأساطير لبيان بغضها الممكن على العدو الصهيوني ولمّ شمل الفلسطينيين أكثر من غيرها من الأهداف.

خلفية البحث:

هناك بحوث عديدة كتبت عن حياة وشعر فدوى طوقان باللغة العربية وغيرها من اللغات ومنها "الشعر جسر نحو العالم الخارجي دراسة في سيرة فدوى طوقان" لنادية عودة سنة ١٩٩٨م و"الصورة الشعرية عند فدوى طوقان" لخالد سندواي سنة ١٩٩٣م. و"فدوى طوقان فوق السطور" لرشا تفاع في سنة ٢٠١١م إلا أنه ما عثر على عمل يعالج دلالات توظيف الأساطير في أعمال فدوى طوقان الشعرية بشكل كامل وجامع كالبحث الحالي فنرى مثلا أن «خالد سندواي» في بحثه "الصورة الشعرية عند فدوى طوقان" يلاحظ حضور الأساطير في شعرها ملاحظة عابرة وسريعة وأيضا يشير خليل موسى في بحثه «الأسطورة في الشعر العربي الحديث» إلى استحضار الأساطير في شعر فدوى طوقان غير أنه لا يعالج هذا الحضور بشكل جامع مفصل بل يشير إليه إشارة عابرة كغيرها من الأعمال في هذا المجال. فلهذا يتمايز البحث الحالي عن غيره في أنه يعالج دلالات توظيف الأساطير في شعر فدوى طوقان معالجة مفصلة ومحددة.

منهج البحث:

اعتمد الباحثون في الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي كما قاما بالدراسة الميدانية- المكتبية لجمع البيانات والمعلومات حيث تتبين المفاهيم العامة للبحث أولا ثم تذكر الأساطير الموظفة لدى الشاعرة بواسطة ذكر شواهد من شعرها وتشير إلى دلالاتها الكامنة وراء توظيفها تحليليا ثم يتم عرض نتائج البحث ومصادره.

توجه فدوى طوقان إلى توظيف الأساطير

«استهوت الأسطورة الشعراء العرب المعاصرين في غضون القرن الماضي كما استهوت غيرهم من الشعراء الغربيين، وعلى رأسهم "تي. س. إليوت" في (الأرض اليباب)، وهي ملحمة كتبها سنة ١٩٢٠م وفيها يتجلى لنا المنهج الاسطوري الذي دعا إليه» (عليوي، ٢٠١٠: ٤).

تفاوت الشعراء والشاعرات في توظيف الأساطير في أشعارهم فنيا، وكانت فدوى طوقان من الشاعرات اللاتي نجحن في توظيفها فنيا؛ إذ توظف فدوى طوقان الأساطير بصور

متعددة؛ فهناك الإلماعة؛ وهي إشارة عابرة إلى أسطورة بهدف استدراج مشاركة القارئ أو استدعاها. طوقان تلجأ إلى الأساطير لتفسير الحياة ومظاهر الطبيعة المختلفة وترسيخ عادات اجتماعية وتطوير بطولية، وتغلب عليها الأحداث الخيالية التي وصفها الله بالأباطيل. فوجدت طوقان في الأسطورة ضالّتها المنشودة للتعبير عن مشاكلها الذاتية ومشاكل عصرها أضف إلى ذلك جاذبية الأسطورة لأنها تجعل الإنسان والطبيعة مرتبطة بعضها ببعض، وتمطي على معرفة التطور في الحياة الانسانية. وقد وظّفت فدوى طوقان الأسطورة توظيفاً فكرياً لخدمة أغراض سياسية واجتماعية وللتعبير عن آمالها وهمومها ومعاناتها كإمرأة ووظّفتها توظيفاً جمالياً لإغناء النص الشعري فنياً.

الأساطير الموظفة لدى فدوى طوقان

«هناك وجهان لتوظيف الأسطورة في الشعر العربي الحديث: الأول يتجلى بشكلي ميكانيكي وخارجي والثاني يتم بشكل عضوي وداخلي» (الموسى، ١٣٧٩: ٩٠). تُستخدم الأسطورة في بنية القصيدة في الوجه الأول للزينة ويدرّ على علم الشاعر وثقافته الواسعة فلهذا حذفها في النص الشعري ليس له تأثير سلبيّ بينما استخدام الأساطير في الوجه الثاني يتم دلاليّاً ويؤثّر على النص الشعري تأثيراً وافراً حيث أنّ حذفها من بنية القصائد يؤدّي إلى نقص الدلالة. وظّفت فدوى طوقان الأساطير في بنية شعرها بهذين الوجهين كما سنرى؛ هي قد توظّف الأساطير بشكل خارجي وتذكرها عابرة وقد توظّفها بشكل داخلي حيث يصير جزءاً لا يستقلّ من نصها الشعري ونظراً للتجربة الفلسطينية المعاصرة في الكفاح والمقاومة من أجل الحرية والاستقلال والتجربة الذاتية للشاعرة فدوى طوقان نجد أن الشاعرة توظّف الأساطير التالية في شعرها:

أسطوره تموز أو أدونيس:

قضية الصراع مع الموت شغلت بال الإنسان منذ خلق وكانت قضيته الوجودية الأولى، وذلك صراع مريم وطويل اتخذ أشكالاً متعددة ومختلفة على مرّ الأجيال في تاريخ الحضارة الإنسانية ولكن الإنسان في صراعه مع الموت أبى أن يستسلم للهزيمة، فهذا دفعه إلى إبداع عالم أسطوري يتغلب فيه الانبعاث على الموت والانسان البدائي يؤمن إيماناً قاطعاً وخالصاً

بالانبعاث. « بدأت ظاهرة الموت والانبعاث بالظهور في الشعر العربي المعاصر منذ فترة الخمسينات وقد ظهرت في ثوب أساطير الخصب وآلهة النيل التي مثلت حركة الموت والولادة وتراوحت هذه الأساطير بين تموز والفينيقي واوليس وبروميثوس وقد كان سبب هذا الإحساس بالبعث الجديد ظهور الفكر القومي وبروز دعائه» (قاسم، ٢٠٠٤: ٢٣٦).

تشتمل أسطورة تموز على معان ومفاهيم أبرزها الموت للحياة أو الموت الذي يسبب الحياة أو الانبعاث بعبارة أخرى «أسطورة تموز تعبر عن انتهاء الحياة وانبعاثها في كل سنة» (رزوق، ١٩٩٠: ٢١).

هناك دلالات مختلفة بواسطة توظيف هذه الأسطورة لدى الشاعرة طوقان حيث تتجلى الزهور وشقائق النعمان من دم الشاعرة التي امتزجت مع أرض فلسطين وتربتها وتحياي من خلالها روح السعادة والآمال من جديد.

كان أدونيس حيوانا مقدّسا مغرما لأفروديت وبرزفونة آلهة الأرض والأموات من وجهة نظر سوريين وكان له ولعشيقته عشتروت معبدا في بابل ويحتفلون فيه انبعاث تموز وعودته إلى الأرض ويتشابهاون هذا الانبعاث وهذه العودة المتزامنة مع الخصب والخير بزهرة "شقائق النعمان" (كورتل، ٢٠٠٥: ١٧). توظيف هذه الأساطير لدى فدوى طوقان فقد كان متميزا منها من شعراء كبدرشاكر السياب وغيره من الشعراء المعاصرين إذ - كما سنجد - وظّفت تلك القضية وغيرها من القضايا الأسطورية بطريقة غير مباشرة إذ لم تذكر الشاعرة الأسطورة بنصها أو أحداثها أو تفاصيلها بل اختارت منها إشارات لخدمة نصها وفتح آفاق جديدة يفكّ شفيرتها ورمزها القارئ الواعي.

نرى فدوى طوقان توظّف هذه الأسطورة في بنية نصها الشعري حيث تقول:

كفاني أموتُ على أرضها / وأُدفنُ فيها - و تحتَ نَراها أذوبُ وأفنى / وأُبعثُ
عُشباً على أرضها - وأُبعثُ زهرةً / تُعيثُ أظلُّ بحضنِ بلادي... تراباً... / وعشباً...
وزهرةً (طوقان، ١٩٩٣: ٤٢٦)

حبّ الوطن هو الذي عبّرت عنه الطوقان في هذه القصيدة بأفضل شكل حيث أنها تتحدّث عن حبها المثالي تجاه فلسطين في بدو القضية حتى انتهاءها وتحلم رؤيتها إلى حد أنها لا فرق لديها أن رأت حبّها ميتاً أو حياً وتتخذ هذه الرؤية لدى فدوى من أن الموت هو الحياة والانبعاث في الواقع.

هنا توظّف الشاعرة أسطورة أدونيس دلاليًا في النص حيث تنبعث من دمائه التي تخضبت بها الأرض التي سار عليها - أو دفن بها - الزهور والورود القانية الحمر، لتبعث في النفس السعادة والأمل بتجدد حياته واستمرارها فلا تنقضي. وذلك ما استطاعت الشاعرة أن تعبّر عنه من خلال موتها ودفنها في الأرض لينبعث منها العشب والزهور التي ترمز للحياة والأمل المتجدد.

تتعامل فدوى مع أسطورة أدونيس في الأبيات دلاليًا ومعنويًا ليس حرفيًا؛ يمكننا فهم هذه الدلالات بعد فحص طويل وكثير معتمدا على الوعي الواقد من النص الأسطوري. يقضي أدونيس ويملئ الأرض خيرا وبركة وهذا هو المعنى الذي تستمده فدوى وتعشق الموت كأدونيس وأن يحيي أرض فلسطين من جسدها. حظيت فدوى بهذه الأسطورة وبثت من خلالها روح التفاؤل والأمل في الخروج من ظلمات المآزق العربي والموت إلى عالم خصيب ومبدع أكثر من الماضي.

أسطورة سيزيف:

«سيزيف أحنق البشر كما يقول الإغريق القدامى وقد عُوّقب على حذاقته بأن يعمل بلا نهاية ولا توقف في العالم الأسفل إلى الأبدية. إذ حكمت عليه الآلهة بأن يدحرج مرمرة إلى قمة تل ثم تسقط قبل وصولها القمة وهو رمز للعبث وكان سيزيف ملك كورورنثيا وكان ملكا بخيلا» (كورتل، ٢٠٠٥: ١٦٤). «يرى النقاد أن أسطورة سيزيف في الشعر العربي الحديث رغم مسعاها البالغ والحديث تتحمل الألم والعذاب دوما دون أن تصل إلى فائدة» (مورية، ٢٠٠٣: ٢٧٥). أنظر شاعرة الفلسطين في قصيدة كيف تضع دلالات هذه الأسطورة في نصها الشعري حين تنشد:

أَنْظُرُ هُنَا الصَّخْرَةَ السُّودَاءُ شُدَّتْ فَوْقَ صَدْرِي / بِسَلَّاسِلِ الْقَدْرِ الْعَتِي / بِسَلَّاسِلِ
الزَّمَنِ الْغَبِيِّ / أَنْظُرُ إِلَيْهَا كَيْفَ تَطْلُجُ تَحْتَهَا / ثَمَرِي وَزَهْرِي / نَحْتَتْ مَعَ الْأَيَّامِ ذَاتِي /
سَحَقَتْ مَعَ الدُّنْيَا حَيَاتِي / دَعْنِي فَلَنْ تَقْوَى عَلَيَّهَا / لَنْ تَكْفُ قِيودَ أُسْرِي / سَأُظَلُّ وَحْدِي
فِي انْطِوَاءٍ / مَا دَامَ سَجَانِي الْقَضَاءُ / دَعْنِي سَابِقِي هَكَذَا / لَا نُورٍ / لَا غَدٍ / لَا رَجَاءٍ /
الصَّخْرَةَ السُّودَاءُ مَا مِنْ مَهْرَبٍ / مَا مِنْ مَفْرٍ (طوقان، ١٩٩٣: ١٩٢-١٩٣)

«أفشى سيزيف سر زيوس وحكمت عليه؛ يرمز سيزيف إلى عجز الإنسان في وجه إرادته التي تسيطر عليه» (ديكسون كندي، ١٣٨٥: ٢٧٣). لهذه الأسطورة مكانة خاصة لدى شعراء العرب المعاصرين وتنوع استخدامها لدى الشعراء المعاصرين كبدر شاكر السياب وصالح عبدالصبور

وأدونيس وأمل دنقل ومحمد عمران وعبد الوهاب البياتي في لغتهم الشعرية كثيرا، «ترمز هذه الأسطورة عند العرب والإنسان العربي إلى الحرب اللاتنتهائية وعديمة الجدوى وتعتبر رمز السعي دون جدوى والعذاب اللاتنتهائي» (جيوسي، ٢٠٠١: ٨١٣). تحاول الشاعرة هنا توظيف أسطورة (سيزيف) الذي يرمز للجهد الإنساني الضائع، فاستلهمت منها الأبعاد الإنسانية والفلسفية مدعومة بالبعد الحتمي للقدر والذي أضفى على الرمز قوة مأساوية، وترمز الصخرة إلى منظومة العادات والتقاليد التي تجثم على صدرها كنفرد وعلى صدور الفتيات جميعا فاستطاعت أن تجعل الرمز جسرا تعبر عليه من الدائرة الفردية إلى الدائرة الجماعية.

وتعتبر فدوى طوقان من الشعراء الذين وظّفوا هذه الأسطورة في شعرهم توظيفا دلاليا وجماليا أو بعبارة أخرى داخلي حيث أنها تستخدمها في بنية شعرها في هذه القصيدة التي تعتبر من أولى قصائدها التي تسعى للجوء إلى الرمزية وتستحضرها للتعبير عن دلالات تكمن في الأسطورة خاصة الثقافية وتستلهم البعد الإنساني والفلسفي للأسطورة وإلى جانبها البعد الحتمي للقدر ولأن العدو هو القدر فلهذا تكررت طوقان اقوالها "لن تقوى" و"لن تفك" و"ما من مفر".

«قصيدة «الصخرة» كما هي واضحة عن عنوانها، صورة للإضطهادات وهي ترمز بالتقاليد الخانقة بالصخرة ولا يكون في وسعها أن تتحرك تحت ثقلها وهي كائنة على صدرها» (حيدري، ١٤٢٤: ٢٤). استحضرت الشاعرة الفلسطينية هذه الأسطورة لتبين رغم أنها تسعى لإيصال نداء الشعب الفلسطيني إلى مسامع العالم ورغم أنها تسعى للخلاص من مأساتها إلا أن تحبب مسعاها ولاتنتهي بنتيجة، وبما أن أسطورة سيزيف تتحمل الأثم والعذاب دوما دون أن تصل إلى فائدة فهذه فدوى طوقان التي تصوّر النظم الإجتماعية وتقاليد صخرة سوداء تحول بينها وبين لقاء الأحبة وتصدها للوصول إلى الحرية في المجتمع وحوّلت عيشها إلى جحيم لا يطاق ويحوّل حياتها إلى أنها لا يرى سوى التسليم للعادات والتقاليد المرسومة طريق آخر أمامها فتقبل العادات التي حرمتها أن تعيش كما تشاء من العجز والضعف.

كما نرى "حوّلت فدوى الأسطورة في القصيدة إلى رؤيا رمزية، محاولة الربط بين عصب الأسطورة وعصب التجربة الشعرية المعاناة، بذكاء وعمق فنيين، مبتعدة عن تسجيل الأسطورة في يدها إلى مادة فقدت الحياة... فدوى لم تحاول استعمال اسم (سيزيف) بطريقة مباشرة، وهذا مما ينفي فرضية الأسطورة، بل إنها استعملت روح الأسطورة،

والتقت أبعادها الإنسانية، والفلسفية، لتكون دسم التجربة الشعرية المعاناة، ذات الصبغة الشمولية، والرؤى الكلية» (النايلسي، ١٩٦٣: ١١١). فهي تعيش حالة من القهر النفسي والاختراب، وهذه الحالة مفروضة عليها حيث أن العادات التقليدية في اجتماعها تسعى أن تجعل منها امرأة لا تستطيع أن تتغير حياتها وعليها أن تقبل كل الذلّ والإهانة دون أن تنبس بينت شفة وعليها أن تعيش في الهامش كغيرها من النساء وهي ترفض الواقع ولكنها ليست باستطاعتها الخلاص من الواقع وهذا هو ما ذكر في أسطورة سيزيف.

رغم أن فدوى طوقان تصوّر المنظمات الدولية التي شدّت كصخرة على صدر الشعب الفلسطيني يمكن القول أنّها تبتعد عن رسالتها الثورية وما يُتوقع من شعراء المقاومة والانتفاضة حيث يجب أن تدعو الشعب إلى المقاومة والجهاد فالشاعرة تجعل المتلقي والمجاهد الفلسطيني يكفّ عن مواصلة نضالها المستميت ضدّ الاحتلال بسبب يأس تبثه عبارات «لأنور، لا غدّ، ما من مهرب، ما من مفرّ» وهنا تفقد الأسطورة وظيفتها الإحيائية والحيوية.

أسطوره العرافة الدهرية "سبيل":

أسطورة "سبيل" هي متنبئة في الأسطورة الرومانية وعرفت باسم «كوميان سبيل» وقد ساعدت أنياس في النزول إلى العالم الأسفل. وصلت تنبؤات سبيل إلى روما خلال حكم (تاركينوس) وهو ملك اتروسكي الأسطوري. «وقد عرضت عليه امرأة غريبة بيع تسعة أجزاء من كتب سبيل وعندما رفض أحرقت أجزاء أخرى وعرضت ثلاثة منها وبسعر تسعة أجزاء فاشترى الملك الثلاثة المتبقية وحفظت الكتب في الكابيتول من قبل للرهبان واختفت الكتب بعد نهب الفنّدال لروما عام ٤١٠» (كورتل، ٢٠٠٥: ١٦٣-١٦٤). توظّف شاعرة فلسطين هذه الأسطورة في نصّها جزئياً وميكانيكياً حيث تقول:

حينَ بلغتُ عاميَ العشرينَ / قالتُ لي العرافةُ الدهريةُ: / (تنبئني عنك الرياحُ
في هبوبها) / تقولُ / (تعويذة الشرِّ المحيِّقِ هنا) / (بيبتك المهلهلُ المشطورُ) / ... /
(حتى يجيئُ الفارسُ المكرسُ المنذورُ) / (تنبئني الرياحُ في هبوبها) / (عن فارسٍ
يجيئُ) (طوقان، ١٩٩٣: ٢٤٢)

تتذكر فدوى في الأبيات المذكورة المتنبئة المعروفة أي أسطورة سبيل التي تنبأ عن قدوم فارس نذير وبشير ومقدس؛ الفارس الذي سيجيء عاجلاً حتى يحرّر الشعب الفلسطيني من الكوابيس التي أصيب بها.

تشير الشاعرة بعبارات والفاظ مثل "قالت لي العرافة الدهرية" و"تبئني عنك الرياح في هبوبها" إلى النص الأسطوري وتتجلى دلالة واضحة في الأبيات. ووظفت الشاعرة أسطورة العرافة سيبيل التي أحبها أبوللون إله الموسيقى والتبؤ عند الإغريق والرومان، فمنحها القدرة على معرفة المستقبل وحياة مديدة تعادل ذرات الرمال التي كانت تحملها في قبضة يدها، لكنها نسيت أن تطلب منه القدرة على تجدد الحيوية في داخلها، فذبلت تدريجياً ووهنت صحتها إلى حد أنها باتت توضع في قارورة، فصار الموت أسمى أمانها. (أنظر: صرصور، ٢٠٠٥: ١٧٧)

كما نرى أنها استحضرت الأسطورة في القصيدة خارجياً وميكانيكياً حيث أنه من الممكن حذفها من النص الشعري بينما لا يؤدي إلى نقص الدلالة. لاتهدف فدوى من ذكر هذه الأسطورة إلى أي شئ خاص فإنها تستحضرها حرفياً مجرد الدلالة على كثرة ثقافتها وإثراء قصيدتها جمالياً.

أسطورة أوديب وعقدة أوديب:

أوديب معناها الحر في "القدم المتورمة" وأوديب بن لايوس ملك طيبة والملكة كوجاستا وقد علم أبوه من نبوءة أنه سينتهي على يد ابنه فرمى أوديب على سفح جبل عند ولادته وربط قدميه سوية ووجهه راعٍ وأخذه إلى ملك كورنث وزوجته العاقرين وربيا أوديب مثل ابنهما. «في شبابه أخبرته نبوءة في دلفي بأنه سيقتل أباه ويتزوج بأمه ففرغ من ذلك وهرب من كورنث وقرر عدم العودة إليهما لأنه كان يجهل أبويه الحقيقيين وذهب إلى طيبة وفي الطريق التقى بالملك لايوس أبيه الحقيقي فقتله في معركة عن حق الشخص في المرور ودخل مدينة طيبة حيث أجاب على لغز ابوالهول "سفنكس" ولقيامه بدحر هذه اللبوة المجنحة نصبه كان طيبة ملكا عليهم وتزوج جوكاستا الأرملة. وبذا تحققت النبوءة بلا معرفة منه وبعد فترة عرف بجرمه الكبير بقتل ابيه وزواجه المحرم من أمه فنفق عينيه وهام على وجهه إلى المنفى ووصل حديقة كولونوس قرب أثينا حيث خلصه "يوميندس" من حياته أمّا جوكاستا فقد شنقت نفسها بعد فترة قصيرة» (أنظر: كورتل، ٢٠٠٥: ١٤٥). تشير فدوى طوقان إلى هذه الاسطورة في بعض من اشعارها عضوياً إذ تقول:

وأرى العالمَ تنيناً خرافياً/ على بابِ بلادي/ وأنادي: «ياحبيبي/ مَنْ يَفْكُ اللغز

مَنْ يَكشِفُ/ سرَّ الكلمات؟» (طوقان، ١٩٩٣: ٢٥١)

وحياتي مع شعبي تَسْتَمِرُّ/ ووراء النَّهْرِ غاباتُ الرِّماحِ السَّمْرِ/ تهزُّ وتَرَبُّو/
وهديرُ العاصفةِ/ يكشفُ اللغزَ وَيُعْطِي العالمَ التَّنينَ/ سرُّ الكلمات (طوقان، ١٩٩٣:
١٥١-١٥٢)

أشارت طوقان في الأبيات المذكورة إلى أسطورة أوديب باستخدام «مَنْ يَفْكُ اللغز»
وتعاملت الدلالات المتنوعة معها. ترى الشاعرة العالم باعتباره تنينا على أبواب فلسطين هو
التنين الذي يقتل كل من يريد الدخول إلى أرض فلسطين وما الجزء الرئيس من هذا التنين
إلا الكيان الصهيوني الذي يقتل الفلسطينيين يومياً فلماذا يحتاج فلسطين إلى أوديب آخر
لكي يكشف لغزه ويخلص أبوابه من هذا الكابوس الرهيب الذي ظل على عاتق الشعب
الفلسطيني طويلاً ويخطف النوم من عيونهم؛ هنا تستحضر فدوى أسطورة أوديب دلاليًا
وبشكل داخلي حيث أنه لا يستقيم النص الحاضر بدونها.

تستخدم فدوى نفس الأسطورة في مكان آخر إنَّما أنها تتجلى بشكل خارجي في النص
الحاضر هذه المرة حيث تنشد:

يا ليتني يا مصرُ نجمٌ في سماءكِ يخفقُ/ يا ليتني في نيلكِ الأزلي موجٌ يدفقُ/
يا ليتني لغزٌ، ابوالهول احتواه، مُغلقٌ.../ تهوي وتنسقُ الدهورَ مواكباً، وأنا هنا/
بعضُ حَفَيَّ من كيانك لست أدركُ ما أنا!! (طوقان، ١٩٩٣: ٥٢)

أشارت فدوى في الأبيات إلى أسطورة أوديب بواسطة كلمات مثل "لغز" و"أبوالهول" وهذه
الإشارة إشارة عابرة كما نرى وتقول عن تمنياتها في بلد مصر ومن الواضح أن هذا
التوظيف من نوع التوظيف اللفظي الجمالي والظاهري حيث أن الشاعرة أشارت إلى
الأسطورة من خلال ذكر بعض من دلالاتها.

وتعكس فدوى أسطورة أوديب على واقعها الحياتي الذي تعيشه فهي اقتبست الأسطورة
وقدمتها بشئ بسيط من التعديل وطرحته من خلالها فكرة أو أفكاراً كلية مطلقة قوامها
التجريد كاللذة والألم والعقل والعاطفة والفرن والواقع والانسان والآلهة وقدمت كلها في
قصيدة يتم فيها إخضاع الأسطورة للفكرة، وتهدف فدوى من خلال الأسطورة إلى أن
الاعتماد الأساسي يكون على الإنسان وقدرته في حل مشاكله وما يكون سبباً في شقائه
وصعوباته وتعكير صفو حياته وتقول الشاعرة يجب أن نستشير أصحاب الرأي والخبرة في
مأساتنا الفلسطينية وعلينا أن نعتمد على أنفسنا أولاً ونفتش عن كل سبيل يساعدنا في
حياتنا ويكشف قدراتنا التي وهبنا للوصول إلى النصر والتخلص من العدو الصهيوني.

أسطورة جلجامش:

إن أسطورة جلجامش أو ملحمة جلجامش تعدّ من أشهر الأساطير في تاريخ آداب الشعوب القديمة المدوّنة باللغة البابلية كما أنّها من أطول النصوص البابلية؛ وصلت إلينا مدونة على اثني عشر رقماً وتشير الأبحاث إلى أن الاسطورة استمدت أصولها من الفكر السومري؛ عثر عليها ضمن المؤلفات المحفوظة في مكتبة آشور بانيبال في نينوي. (سلمان، ١٣٩٨: ٩٦)

جلجامش وأنكيكو أسطورة بابلية؛ تبدأ أسطورة جلجامش بمدح ملك مدينة أور العراقية ثم يقضي أنكيكو صديق الوفي للجلجامش ويحزنه كثيرا وهنا يدرك جلجامش المسألة الحقيقية للإنسان أي الموت فيترك عرشه ويسعى إلى سر الخلود وإكسير الحياة حتى حصل على النبتة التي تطيل العمر وتعطيه هو وقومه سر الخلود الأبدي إلا أنه يتوقف جلجامش قرب نهر في طريق العودة ليستريح حينه يضع النبات جانبا فإذا أفعى تسرق النبتة وتأكلها وبهذا ينتهي إلى يأس جلجامش وموته. (سويلم، ٢٠١٠: ٥٩)

استحضرت شاعرة فلسطين أسطورة "جلجامش" في إحدى قصائدها باسم "خريف ومساء" وتؤكد من خلالها المصير الحتمي لكل إنسان أي الموت وحينها تقول:

عجبا، ما قصة البعث وما لغز الخلود؟ هل تعود الروح للجسم الملقى في
اللُحود؟ ذلك الجسم الذي كان لها يوماً حجاباً/ ذلك الجسم الذي في الأرض
قد حال تراباً/ أو تهوي الروح بعد العتق عوداً للقيود؟! (طوقان، ١٩٩٣: ١٣)

هنا تتعامل الشاعرة مع أسطورة جلجامش فحوائيا وداليا حيث أنها تعجب من الحياة بعد الموت وتبحث عن سر الخلود من خلال موت أخيها إبراهيم كما يبحث جلجامش من خلال موت صديقها "أنكيكو"؛ هنا وقوع التشبيه واضح في الأحداث دلاليا إلا أنه يختلف بنص الأسطورة لأن الشاعرة في نصها قلقة من أن تعود الروح إلى الجسد بينما كان جلجامش يخاف من الموت ويبحث عن طريقة إعادة الروح إلى الجسد مرة أخرى.

فدوى ترى وتأمل الخلود في العالم الآخر في حين ليس لدى جلجامش أمل للحياة بعد الموت ويبحث عن الخلود في العالم الفاني. تشير الشاعرة في الأبيات إلى نص الأسطورة من خلال ذكر كلمة "خلود" وفي الدلالة.

وتهدف فدوى من خلال أسطورة جلجامش إلى التصدي لثلاث قضايا هي: الحياة والحب والموت فهذه هي القضايا التي شغلت ذهن الشاعرة مدى حياتها وتقول إننا لنبدأ من

النهاية بالموت لأنَّ النهاية ليست أقلَّ شأنًا من البداية. وعلينا أن نغتم الحياة الآفلة ونتمتع بالصبح وعلينا أن نفعل شيئًا يخلد ذكرنا وفكرنا إن لم نستطع أن نخلد جسمنا وشكلنا.

دلالات توظيف الأساطير الدينية

يعتبر إعطاء البعد الأسطوري للشخصيات الدينية من أبرز إبداعات الشاعر العربي المعاصر حيث أنه يستلهم من هؤلاء الشخصيات والأحداث المتصلة بهم ويستخدمها في بنية قصيدته بطرق عديدة وجميلة.

وكما سنرى لم تكن فدوى طوقان معفاة من هذه القاعدة حيث أنها استحضرت بعضاً من الأساطير الدينية وأكدت من خلالها أن ثقافتها الواسعة لا تنتهي إلى استحضار الأساطير الأمامية حصراً بل هي ترى أن للأساطير الدينية تأثيراً وافراً والاكثر من الأساطير الأمامية المختلفة فهذا توظّفها في بنية شعرها خارجياً وداخلياً.

تعتبر شخصية عيسى عليه السلام ويوسف عليه السلام من أبرز الشخصيات الرئيسة التي تعطيها الشاعرة بعداً أسطورياً لأنهما أقرب إلى تجربتها الفردية والاجتماعية. فهي أشارت إلى الأسطورة إشارة عابرة بهدف استدراج مشاركة القارئ أو استدعائها.

أسطورة عيسى مسيح عليه السلام :

نرى الشاعرة فدوى طوقان في معالجتها لقضية الموت تعتمد على اسطورة «مسيح» وتمثيل جمال عبدالناصر بالمسيح. لكن نظرتها إلى المسيح ليست إسلامية بل من منظور مسيحي. وذكرت الشاعرة المسيح عليه السلام في شعرها وذلك لوجود التشابه بين حياته عليه السلام وحياة الفلسطينيين. فدوى طوقان توظّف السيد المسيح عليه السلام في شعرها قائلة:

في احتدامِ الدم والنارِ وطُغيانِ الجنونِ / بسَطَ الفادي نبيُّ الحُبِّ كفيه علينا /
وافتدانا / أه ما أغلَى الفداء! / واشترانا / أه ما أغلَى الثمنَ / وعلى وخز مساميرِ
الألمِ / وعلى حزُّ سكاكينِ العيَاءِ / أسندَ الرأسُ وأرخى / هدبَ جفنيه ونامَ / وبعينيه
رؤى الحُبِّ وأحلامِ السَّلامِ (طوقان، ١٩٩٣: ٦٠٣-٦٠٤)

أنشدت فدوى هذه الابيات للتعبير عن مأساة ايلول بعد نكبة ١٩٦٧م وتمزج بين مأساتين هما: (ايلول وموت عبدالناصر). قارنت الفادي - جمال عبدالناصر - بعيسى عليه السلام وتستحضر أسطورة عيسى عليه السلام من خلال عبارتها «وعلى وخز مسامير الألم» التي قصدت بها أنَّ الفادي تحمل العذاب وافتدى خطايا البشر بنفسه.

فتأثرت الشاعرة بهذه المأساة جعلها تفقد صوابها، وتنادي بغير الحق لافتداء الراحل الذي خطفته المنية من الساحة العربية. استحضر أسطورة المسيح ﷺ في الأبيات يتم دلاليًا وبشكل عضوي حيث أنه ليس يمكن حذفها من النص الشعري. وتهدف فدوى من خلال استحضر الأسطورة للتأكيد على قيمة التضحية ولا بد علينا أن نضحّي بنفسنا للوصول إلى النصر النهائي كما ضحّى المسيح بنفسه.

فكما نراها في مكان آخر تشكو إلى السيد المسيح ﷺ وتذكر الواقع المرير في القدس وتقول:

القدسُ على دَرَبِ الآلامِ / تُجلدُ تحتَ صليبِ المحنةِ / تُنزَفُ تحتَ يدِ الجلادِ /
والعالمُ قلبٌ منغلقٌ / دونَ المأساةِ (طوفان، ١٩٩٣: ٥٠٠)

أسطورة يوسف ﷺ:

النبي يوسف ﷺ واحد من الشخصيات الدينية الأخرى التي يعطيه الشعراء بعداً أسطورياً في أشعارهم حيث أنّ الشعراء المعاصرين يوظّفونه خارجياً وداخلياً في أشعارهم ويستلهمون القصة القرآنية للتعبير عن أحداث العصر وذاتيتهم كما هو الحال في شعر فدوى طوقان؛ ونرى الشاعرة تلجأ إلى توظيف أسطورة يوسف ﷺ وتخلق منها معاني أخرى إلى جانب دلالاته إذ تقول:

لويدي أن أحميه هذا الكوكب / من شرّ خيارِ صعبٍ / لو أنّي أملكُ لو بيدي /
أن أرفعَ عن هذا الكوكب / كابوسَ الحربِ / أن أفرغه من كلِّ شرورِ الأرضِ / أن
أقتلعَ جذورَ البغضِ / أن أقصي قابيلَ الثعلبِ / أقصيه إلى أبعدي كوكبِ / أن أغسلَ
بالماءِ الصافيِّ / إخوةَ يوسفِ / وأطهرَ أعماقَ الإخوةِ / من دنسِ الشرِّ (طوقان،
١٩٩٣م: ٤)

في قصيدة "هذا الكوكب الأرضي" التي تعتبر من أشعارها القومية وتعالج فيها قضية بلادها، كانت طموحة ترغب في تغيير العالم بيدها وتمنت أفرغ الأرض من الشرور واقتلاع جذور البغض نراها في القصيدة وهي تتكرر كلمة "لويدي" لتؤكد إلحاحها في أمنيتها، فقد تمنت إقصاء قابيل صاحب أول جريمة في تاريخ البشرية ولقبته بالثعلب لمكره وكيده على أخيه، وذكرت إخوة يوسف وأنها تريد أن تريد أن تظهر أعماق الإخوة من دنس شرهم، فكيف سوّلت لهم أنفسهم في التفريط بأخيهم، وكان هناك اقتباس واضح من القرآن في ذكرها لهذين المعادلين الموضوعيين قابيل وإخوة يوسف ﷺ.

هاهي فدوى طوقان تستحضر النبي يوسف عليه السلام في نص شعرها داخليا وخارجيا معا حيث أنها توظف الجانب السلبي من القصة كأنها تريد أن تقول لملتقاها أن الحسد الذي كان لدى إخوة يوسف سبب لكثير من البلايا والحوادث والكوارث.

ونرى الشاعرة تجلب اسم يوسف شكليا في حينها تشير إلى إخوة يوسف وبهم توجه إلى وجوب قضاء الأشرار على الأرض للحصول على الصلح والسلمية فتشير من خلال القصيدة إلى مأساة وطنها والظلم الذي يصله من الاحتلال ومن جميع الخونة للقضية الفلسطينية وكأنها تريد أن تقول إخوة يوسف هم الاحتلاليون وهم الخونة وعملاء المرتزقة الذين يعملون في مصالحهم.

بالنظر إلى السابق نفهم أن الشاعرة تهدف من خلال استحضار يوسف عليه السلام وذكره في بنية القصيدة إلى ذكر الخيانة والظلم الذي لحق بفلسطين في مأساتها وقضيتها والخيانة التي جاءت بها من إخواتها.

النتائج

١. نرى أن كيفية توظيف الأسطورة في شعر فدوى طوقان ودلالاتها الكامنة تتم بحيث أن الشاعرة تستحضر الأساطير في بنيتها الشعرية بطريقتين هما الميكانيكية والخارجية والداخلية والعضوية حيث أنها تعتبر الأسطورة في الطريقة الأولى حشوا فلماذا حذفها لايسبب نقصا بينما تتم توظيف الأسطورة في طريقة أخرى بامتصاصها دلاليا حيث أنه لا يمكن انفصال النص الأسطوري من النص الشعري.
٢. هناك أهداف تبحث عنها الشاعرة من خلال الرجوع إلى الأساطير فنراها تستحضر أسطورة تموز أو أدونيس لبث روح التفاؤل والأمل في الخروج من ظلمات المأزق العربي والموت إلى عالم أكثر رحابة وخصبا وإيناعا ومن خلال الأسطورة تهدف إلى تبيين هذا المعنى بأنه رغم أنها تسعى لإيصال صرخة الشعب الفلسطيني إلى مسامع العالم ورغم أنها تسعى للخلاص من مأساتها إلا أن مسعاها لا ينتهي إلى شيء ولا جدوى فيه.

٣. لا تهدف فدوى من ذكر اسطورة العرافة الدهرية "سبيل" إلى أي شئٍ محدد فإنها تستحضرها حرفيا مجرد الدلالة على كثرة ووسعة ثقافتها.
٤. في أسطورة أوديب فترمي الشاعرة من خلالها إلى الاعتماد على الناس وأهل الخبرة والفكرة للوصول إلى النصر والتخلص من العدو الصهيوني إذ وهبنا الله قدرات نستطيع من خلالها التغلب على المشاكل وصعوبات الحياة كالعدو الصهيوني وأسطورة جلجامش توظفها للتصدي لثلاث قضايا هي : الحياة والحب والموت فهذه هي القضايا التي شغلت ذهن الشاعرة مدى حياتها وتقول إننا لنبدأ من النهاية بالموت؛ لأن النهاية ليست أقل شأنًا من البداية. فعليًا أن نغتني الحياة الآفلة ونتمتع بالصبح وعلينا ان نعمل شيئًا يخلد ذكرنا وفكرنا إن لم نستطع أن نخلد جسمنا وشكلنا.
٥. تهدف فدوى من خلال استحضار أسطورة عيسى المسيح ﷺ للتأكيد على قيمة التضحية وأنه لا بد لنا أن نضحى بأنفسنا للوصول إلى النصر النهائي كما ضحى المسيح بنفسه وفي الختام نرى الشاعرة توظف أسطورة يوسف ﷺ في بنية القصيدة بهدف ذكر الخيانة والظلم الذي لحق بفلسطين في مأساتها وقضيتها والخيانة التي أصابتها من أخواتها خاصة وإلى ظلم الإحتلال وغطرسته وعنصريته وهمجية جنوده ودموية وسادية جلاديه وسجانيه عامة.

المصادر والمراجع

١. البستاني، بطرس (١٩٩٥م). المنجد في اللغة والأعلام. ط ٢٧، بيروت: دار المشرق.
٢. ——— (١٩٩٧م). محيط المحيط. بيروت: مكتبة لبنان.
٣. بنيس، محمد (١٩٩٠م). الشعر العربي الحديث؛ بنياته وإبداعاته. المغرب: دار توبقال.
٤. تفاحة، رشا (٢٠١١م). فدوى طوقان فوق السطور. سلسلة أوراق عمل جامعة بيرزنت، نموذج المؤتمرات والمناسبات العامة، معهد إبراهيم أبولغد للدراسات الدولية.
٥. حيدري، محمود (١٤٣٤هـ). «الرؤية الأنثوية في الخطاب الشعري؛ دراسة مقارنة بين فدوى طوقان وفروغ فرخزاد». مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ٩، العدد ٤، صص ٥-٢٩.
٦. داغر، شربل (١٩٩٧م). «التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري». مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد ١٦، العدد ١.
٧. الدردنجي، هيام (١٩٩٤م). فدوى طوقان شاعرة أم بركان، عمان: دار الكرمل.
٨. الزبيدي، محمد مرتضى (دون تا). معجم تاج العروس، من جواهر القاموس. بيروت: منشورات مكتبة الحياة.
٩. سلمان، حسين احمد (١٩٩٨م). تاريخ العراق: قديمه وحديثه. البيضاء: شركة الوفاق للطباعة الفنية المحدودة.
١٠. سنداوي، خالد (١٩٩٣م). الصورة الشعرية عند فدوى طوقان. بيروت: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر.
١١. شاكر، تهاني عبدالفتاح (٢٠١٠). «تجليات أسطورة البحث في ديواني "لا تعتذر عما فعلت" و"كزهر أو أبعده" لمحمود درويش». مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٦، العدد ١-٢.
١٢. عزام، محمد (١٩٩٦م). النص الغائب. دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.
١٣. عودة، نادية (١٩٩٨م). الشعر جسر نحو العالم الخارجي دراسة في سيرة فدوى طوقان. نابلس: الدار الوطنية.
١٤. طوقان، فدوى (١٩٩٣م). الأعمال الشعرية الكاملة، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع.
١٥. قاسم، نادر (٢٠٠٧م). أساطير الموت والانبعاث في مجموعة نهر الرماد؛ للشاعر خليل حاوي. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث، العدد ٣.
١٦. كورتل، آرثر (١٩٩٣م). قاموس أساطير العالم. ترجمة: سهى الطريحي، ط ٦، دمشق: دار نينوى للمؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٧. الموسى، خليل (١٣٧٩ش). «اسطوره در شعر معاصر عرب». ترجمة: موسى بيدج، مجلة "شعر"، العدد ٢٨، صص ٨٨-٩٣.
١٨. النابلسي، شاکر (١٩٨٥م). فدوى تشتبك مع الشعر، دراسة نقدية لشعر الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. جدة: الدار السعودية.
١٩. يوسف، ميساء مضر شيخ (٢٠٠٨). اللغة في الأسطورة بين التأويل والتعليل مقارنة سيميائية للنصوص الأوغاريتية. رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية، سوريا.